نزار الشعري

نحو شباب لا يفشل... ينجح أو يتعلم

التغير مسار كوني وحتمي، فكل شيء يتغير باستمرار انطلاقا من خلايانا ، وصولاً إلى طريقة استيعابنا العقلي والروحي لكل ما يحيط بنا،غير أن تفاعل الناس مع هذا التغيير يختلف حسب درجة الوعي والمعرفة والخبرة الحياتية. ففي الوقت الذي نجد فئة تنكر أي جديد وتصده ، وفئة أخرى تسلم للأمر الواقع وتتعاطى معه ، توجد نخبة قادرة على استباق هذا التغيير واستشرافه ، بل خلقه أيضا.

يقول الدكتور أحمد زويل : "الغرب ليسوا عباقرة، ونحن لسنا أغبياء. هم فقط يدعمون الفاشل حتى ينجح ، ونحن نحارب الناجح حتى يفشل."

انطلاقًا من هذه المقولة أشير إلى ومضة تعود إلى سنة 2010 ، ففي الأشهر الأخيرة من العشرية الأولى للقرن الواحد والعشرين، انطلق حراك شبابي من مدينة سيدي بوزيد ،وانتشر بشكل سريع في البلاد التونسية.وفي غضون شهر أدى إلى سقوط نظام الحكم آنذاك. وبما أن أغلب أعمالي في تلك الفترة كانت موجهة إلى الشباب المحصورة أعمارهم بين 18 و 35 عاما ، وقفت عاجزا عن فهم ما يجري، وتساءلت كغيري: لماذا تحرك الشباب ؟ ماهي دوافعه الحقيقية ؟ هل هو أمر عرضي ؟ أم هي رغبة دفينة في تغيير حقيقي ؟ إلى أين سيذهب الشباب بتحركه هذا ؟

حينها قررت أن أهيم على وجه الأرض لأتعلم، نوع من العود على بدء، كانت الرحلة في شهر أفريل 2011، جلت فيها كامل جهات تونس وقابلت فيها أكثر من 2600 شاب وشابة، باحثاً عن إجابةٍ تثلج صدري.

كانت أولى الملاحظات التي رأيتها على الميدان تيه وضياع في أعين الفئة الجامعية من شبابنا، فجلهم

يدرس ما لم يختر من التخصصات لأسباب مختلفة، أولها رغبة الأولياء : فالأغلبية العظمى من الأمهات التونسيات يرغبن أن يتوجه أبناؤهن إلى الطب.

أما الأباء ،ورغبةً منهم في استقرار فلذات أكبادهم ،فإنهم يفضلون التخصصات الموصلة إلى عمل حكومي مضمون الأجرومريح، يسمح بمزاولة أنشطة موازية مدرة لدخل إضافي. أما ثاني الأسباب فيكمن في عدم الإحاطة بالتخصصات الأخرى الممكنة ومتطلباتها، حيث إن عملية التوجيه الجامعي والمهني في تونس، رغم مزاعم الحكومات المتعاقبة، مفتقرة بشكل كلي إلى المرشدين البداغوجيين والموجهين التربويين والمتابعين النفسيين المرتبطين بالمعاهد.

لذا فلا تستغرب حين ترى شاباً تجاوز العشرين من العمر ولم يدرك بعد ماذا يريد أن يحقق في حياته المهنية، أضف إلى ذلك كله الضغط الاجتماعي المقنن للنجاح في تونس، فإما أن تكون من ذوي السترة البيضاء ،أو تُنعت بالفشل في حياتك المهنية حتى لو كنت صانعاً ماهراً أو حرفياً متميزاً ليقع ترتيبك بشكل آلي في الدرك الأسفل من السلم الاجتماعي.

أستحضر هنا كلمة مفتاحا ترددت على لسان العشرات بل المئات من الشباب الذين قابلتهم على امتداد العقد المنقضي، كلمة تكاد تكون السبب الرئيس في تعاسة أجيال كاملة في تونس ولربما في عدد أخر من بلدان وطننا العربي : هذه الكلمة هي "الفشل".نعم، نحن أمة تخاف الفشل ، فكم من طفل أجاب ببراءة على السؤال الكلاسيكي : ماذا تريد أن تعمل حين تكبر ؟ " أريد أن أكون رائد فضاء أو عالم ذرة" ولكن ضحكات من حوله دمرت حلمه في المهد، فلا ذنب للفتى سوى أن خياله جنح عن العرف والممكن الاجتماعي في قريته أو بلدته .

هذا النوع من الأحلام غير ممكن في تونس مما جعل مستوى الطموح ينحدر بشكل كبير إلى درجة أن أغلب الشباب دخل في صندوق مقولب جاهز يتمثل في دراسة، ما أمكن وما يسمح بدخل مضمون لا يسمن ولا يغني من جوع ومن ثم الانخراط في دوامة الاقتراض البنكي لتوفير السيارة والمسكن والزواج،

والعيش على سداد القرض حتى نهاية العمر وهوالنمط الاجتماعي نفسه الذي سيعاد مع الأبناء.

ومما زاد في حدة هاجس الفشل لدى شباب تونس ذلك الضغط النفسي الذي يمارسه المجتمع بشكل لا واع ولا مقصود ، ينطلق من الأسرة التي تطفئ أي بذرة ثقة يضعها الطفل في نفسه من خلال كثرة المحظورات والمحرمات وتكرار عبارات مثل : " هذا عيب / وهذا حرام / لا تزال صغيراً على هذه الأفكار والأعمال ".

وتتواصل هذه التصرفات اللاتربوية في المدرسة مع المدرسين الذين يختزلون التعليم في التلقين وملء العقول الصغيرة بمعلومات لا يعاد النظر فيها إلا كل عشر سنوات، متناسين النسق المتسارع للتغيير الذي يشهده العالم من خلال العلوم الجديدة، وهذا أنتج في نهاية المطاف شعوباً تبحث عن الشهادات فقط لا عن الكفاءات، وغاب عنها الهدف الأساس من التعليم ألا وهو تطوير واقع الإنسان لا البحث عن شغل.

وقد تفاقم الوضع مع تغير دور الدولة في تونس وعدم قدرتها على استيعاب الخريجين ، علاوة على البروز الإعلامي المبالغ فيه لمهن جديدة تقود صاحبها إلى المال والشهرة وقمة النجاح الاجتماعي كاحتراف لعب كرة القدم والتمثيل والغناء...فوجد الطلبة أنفسهم تائهين بين تحقيق حلم آبائهم في نيل شهادات ومراكزاجتماعية عالية ، معظمها لا توفر لهم الأموال الكافية لإشباع رغباتهم في حياة مترفة وإيجاد شريك الحياة المنشود في المخيال الشعبي ، وواقع قضى على كل القيم الممجدة للعلم والعمل والمثابرة والقناعة، فترتبت عن هذه المفارقة مشاكل نفسية واجتماعية كبيرة تتمظهر في تنامي العنف في المجتمع ،وفقدان الأمل في بناء مستقبل زاهر في تونس ،مما دفع المتعلمين إلى الهروب لإكمال الدراسة في الخارج مستحدثين هجرة خطيرة للأدمغة إلى درجة أصبحت مقلقة . كما دفع غير المتعلمين إلى محاولات الهرب وراء حلم الثورة عبر قوارب الموت التي تملأ المتوسط من جهة ، أو عبر إديولوجية الموت التي تملأ القبور المجهولة في العراق وسورية من جهة أخرى... فما الحل إذن ؟

بعد دراسات متعددة ولقاءات علمية ومهنية مختلفة أعتقد جازماً أن الحل يكمن في جملة واحدة : الانتقال

الجيلي للمعرفة والسلطة وهذا الانتقال يعتمد أساساً على كلمة يصعب إدراجها في بحث علمي دون أن تثير استهزاء المستمعين : إنها " المحبة"، ولو بحثتم في قلب الطفل الصغير الساكن بداخلكم وإن تناسيتموه أحيانا لوجدتم أن كل ما تحتاجه الأجيال اللاحقة من سلفها ليس أن يقوم كبار السن وذووالعلم والخبرة بالتفكير في مستقبل ليس لهم ، ولكن أن يمرروا– باعتبارهم خلية اجتماعية– كل المعلومات والقدرات الكفيلة بفتح أفق التفكير النقدي البناء للخلية التي تليها.

ومن هذا المنطلق كان واجباً حتى تتم العملية بسلاسة ونجاح أن يتحلى جيل الأباء بالتواضع المعرفي والمحبة، للأخد بيد خلفهم وإعطائهم –منذ الصغر– ما يلزم من المهارات والمبادئ ليكون واثقاً بنفسه قادرا على البناء.

فحين نحاول اليوم إيجاد حلول للطاقة الأحفورية يستطيع أبناؤنا إفحامنا بالحديث عن الطاقات الكوانتية معللين كلامهم بدراسات نيكولا تسلا وعمله حول مشروع "هرب" الذي يجهله أغلب معاصرينا.

وحين نتحدث عن عسكرة الفضاء يفحمك جيل المصفوفة بنظريات حول التثاقف مع حضارات فضائية بات متيقنا من وجودها ومستعداً للتفاعل معها ومع كل ما سينتج عن ذلك من تغيير لعلومنا الأرضية.

في زمن نكتفي نحن فيه بدراسة ما ظهر من تواريخنا الإنسانية، يستنطق الجيل الجديد الأسطورة للبحث في علاقة أطلنتس بالحضارات المتقدمة المندثرة وسبب غيابها وعن حقيقة بناء الأهرام ودورها الحقيقي وأسباب السكوت عن الأهرامات الموزعة في أقصى الأرض وأدناها.

نعم نحن لا نستطيع –باعتبارنا أكاديميين –أن نمر على هذه النظريات دون ابتسامة الأنا المتعالي لأنه يعلم أنه يعلم ، ولكن، أليست تلك الابتسامة المستهزئة هي نفسها التي ظهرت على الشفاه كلما أراد شخص أن يطير قبل اختراع الطائرة، أو جزم أخر أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس أو أن الإنسان سيغوص يوما ما إلى 20 ألف قدم تحت سطح البحر ؟

ماذا نحن فاعلون حين نعلم ان الصين انطلقت في بحوث التنقل اللامادي

وأنها بالفعل نجحت في أولى محاولتها ، ماذا نحن فاعلون أمام نظريات Tele transportation وعملهم على خلق جيل جديد من البشر مستعملين التعديل الجيني Transhumanisme والنانوتكنولوجي وحتى التخاطر الذهني ؟ ماذا نحن قائلون لهذا الجيل الذي بدأ يبحث في اللغة كذبذبة قادرة على التأثير في الطاقات التي بداخلنا وحولنا بدل التعاطي معها كصرف ونحو وعروض؟

كل هذه الأسئلة قد تتعدى معرفتنا البسيطة ولكن أملنا أن يتمكن الجيل القادم يوماً ما من إيجاد أجوبة لها... لذلك من موقعي البسيط وبصفتي إنسانا برتبة مواطن في بلد عربي متوسطي إفريقي اسمه تونس عملت على بعث الثقة في الشباب وتفعيل منظومة حقيقة للانتقال الجيلي للمعرفة والسلطة من خلال إنشاء منظمة "رؤى تونس" التي تشتغل على تطوير القدرات القيادية والريادة

عند شباب وطني، أهدف من خلالها إلى إعادة زرع الأمل والرغبة في البناء والإنجاز في آلاف الشباب المنضوي تحتها حتى تكون لهم شجاعة القادة للإقدام على التغيير الجذري والسريع لطرق تفكيرنا المتجاوزة، وعلى البحث عن ثورة ثقافية علمية وتشريعية مرتكزة إلى فورة الشباب أكثر منها إلى حكمة الشيوخ .

ولكن ماذا لو جعلنا الحكمة في خدمة الجرأة والرغبة في التغيير ؟ ماذا لو خلقنا جسرا للتواصل بين الأجيال بدل الجدل العقيم حول من منهما على حق ؟

كيف ؟ ومن أين نبدأ ؟ هو موضوع أقترحه بكل محبة على جمعكم الموقر للبحث ،وشعاري في طرحه كلمات خالدة للقائد الأفريقي الكبير نيلسون ماندلا : " أنا لا أفشل البتة ، أنا أنجح أو أتعلم".